الصراع بين الدولة العثمانية وحكومة البرتغال
فى المحيط الهندى وشرق أفريقيا والبحر الأحمر

افتتح الأمير هنرى الملاح البرتغالى سنة ١٤٢٠ سلسلة المحاولات الأوربية للكشوف الجغرافية ، وكان استيلاء العثمانيين على مدينة القسطنطينية سنة ١٤٥٣ سبباً من الأسباب الإضافية التى أدت إلى ازدياد هذه المحاولات ، لمناهضة السيطرة البحرية الإسلامية عموماً . وكان أول عمل لهذا الأمير هو الاستيلاء على ميناء سبتة ، واكتشاف المنطقة الواقعة جنوبى إقليم موريتانيا . وتمكن البرتغاليون بذلك من جمع المعلومات عن تجارة العرب وقوافلهم التى تسير بين المغرب وتمبكتو والسنغال ، وحاولوا تحويل هذه التجارة إلى أيديهم . وكانت الأحوال المالية لا تسمح بإرسال أكثر من سفينتين أو ثلاث ، لكشف ساحل أفريقيا الغربى ، ولهذا لم يتقدم البرتغاليون فى خطواتهم ، بالرغم من كثرة عدد مشروعاتهم ، إذ لم تصادف حملاتهم فى طريقها سوى شواطىء تغطيها الرمال ، وتنعدم فيها الحياة ، كما أنهم لم يجدوا ميناء لدخول سفنهم ، واعتقدوا بذلك أنه لا توجد حياة فى الجنوب ، كما تقول الخرافات القديمة . وبعد محاولات ظلت حوالى الثلاثين عاماً وصلت السفن البرتغالية إلى أرض غنية بخضرتها ومزروعاتها وحيواناتها ، وتسيطر عليها مجموعات قوية من الإفريقيين ، فكان هذا الكشف مدعاة لدحض المزاعم القديمة التى توارثها الأوروبيون .

وازداد أمل البرتغاليين فى الوصول إلى الهند بعد سنة ١٤٩٧ م ، وهى السنة التى مرت فيها أول سفينة برتغالية على ساحل أفريقيا متجهة نحو الشرق . ووصلت الأخبار إلى الملك عمانويل الأول بوجود موانىء على ساحل أفريقيا ، فجعل النشاط البرتغالى على ساحل أفريقيا الشرقى ضمن مسئوليات موظفى الدولة ، ولذلك لم يسمح لأى فرد بالقيام برحلة نحو الشرق (آسيا) ،.. وكان

الملك عمانويل الأول هو الذى يمول هذه الرحلات من الموارد الملكية، أو من أموال القروض ، وحاول أن يكون له نصيب الأسد فى التجارة بين أوربا وآسيا ، ما عدا بعض استثناءات قليلة .

ويبدو من الضرورى هنا أن ننتقل إلى موضوع العلاقات بين الدولة العثمانية ودول البحر المتوسط ، قبل أن ننتقل إلى موضوع الصراع البرتغالى فى المحيط الهـنـــدى والمناطق المجاورة له .

فمن المعروف أن جماعات من القراصنة الأوربيين كانوا ينقضون على السفن الإسلامية فى شرق البحر المتوسط ، وتعودوا بيع غنائمهم والحصول على ما يحتاجون إليه من موانى البندقية على البحر الإدرياتى وبحر إيجه . وكانت هنالك أيضاً اشتباكات بين جماعات من الجنود المرتزقة ، من اليونان والألبان، وبين العثمانيين . وكانت البندقية تخشى وقوع اصطدام بين القوات العثمانية وقواتها ، ولذا أصدرت التعليمات إلى ضباط بحريتها بأن يتحملوا المشاق ، وألا يفقدوا سيطرتهم على أنفسهم ، تحت أى ضغط عثمانى ، لأن أية حادثة خطيرة سوف تجلب المآسى للبندقية التى فقدت حينذاك الكثير من نفوذها لدى الباب العالى ، وخاصة بعد أن فقدت صديقها إبراهيم باشا الذى أعدم فى عام ١٥٣٦ . ورأت البندقية أنه فى حالة وقوع حادث ، فإنه سوف يكون من الصعب لديها أن تسترضى السلطان ، ووضحت هذه الصعوبة عندما هاجمت سفن بندقية عدداً صغيراً من السفن العثمانية كانت تحمل مبعوثاً من السلطان سليمان إلى البندقية . وقامت القوات العثمانية بتخريب كورفو أخذاً بالثأر ، ووجدت البندقية أنه لا أمل فى الوصول إلى اتفاق سلام مع العثمانيين ، لذلك رحبت بالدخول فى حلف مع البابا والإمبراطور شارل الخامس ، ووقعت الاتفاقية فى ربيع عام ١٥٣٨ م

وفى الوقت الذى كانت فيه الدولة العثمانية تدافع عن نفوذها فى البحر المتوسط ، كان البرتغاليون يثبتون سيطرتهم فى المحيط الهندى ، وهو الأمر الذى شكل أخطاراً هددت كيان مصر ، لأن البرتغاليين كان همهم الأول

منع التجارة بين الهند والبحر الأحمر والخليج الفارسى العربى ، وتحويل تجارة التوابل والمنتجات الأخرى إلى لشبونه . لذا أرسل السلطان قنصوه الغورى ، مدفوعاً بضرورة المحافظة على تجارة الشرق التى تردإلىساحل البحر الأحمر ، أو عن طريق القوافل إلى الموانىء المصرية ، أسطولاً بقيادة الأمير حسين الكردى وأبحر هذا الأسطول فى أكتوبر عام ١٥٠٥ م ،وكان قوامه حوالى خمسين سفينة . وبعث السلطان الغورى مع هذا الأسطول عدداً من الصناع والبنائين ، لبناء سور حول ميناء جدة .

وجاء فى ذلك الوقت أسطول برتغالى إلى البحر الأحمر ، فى محاولة للاتصال بالنجاشى الذى كان معروفاً لدى الأوربيين باسم برسترجون ، وذلك للوصول إلى اتفاق لإعداد حملة مشتركة يشترك فيها ملك فرنسا الذى عليه أن يحتفظ بقوة عسكرية فى سواكن ، ثم ملك أسبانيا الذى عليه أن تحتل قواته زيلع ، أما ملك البرتغال فعليه أن يتخذ من مصوع قاعدة لقواته .

وخرج الأسطول البرتغالى من سواكن إلى جدة ، املا فى الزحف إلى المدينتين المقدستين مكة المكرمة والمدينة المنورة . غير أنه لما علم البرتغاليون بوجود الأسطول المصرى فى جده هربت السفن البرتغالية نحو الجنوب ،ثم إلى ساحل الهند ، وخرج قائد الأسطول المصرى إلى سواكن ، ثم سار جنوباً متعقباً السفن البرتغالية إلى أن وصل إلى ساحل الهند ، حيث التقى بالأسطول البرتغالى فى ميناء شول على ساحل الهند الغربى . واشتبك الأسطولان فى موقعة انتهت بهزيمة البرتغالين وذلك فى صيف عام ١٥٠٨ م . ثم استطاع الأسطول البرتغالى أن يستجمع قواته، وأن تصل إليه الإمدادات، فأنزل فى العام التالى ١٥٠٩ هزيمة ساحقة بالاسطول المملوكى ، حيث أغرقت جميع سفنه فى مياه ديو . ثم فرض البرتغاليون حصاراً قوياً لمنع السفن القادمة من الهند من دخول البحر الأحمر والموانىءالعربية ، واستطاعت السفن البرتغالية بهذه العملية أن تعزل موانى البحر الأحمر وبخاصة جدة وسواكن والسويس، وأن تمنع وصول التوابل والسلع الأخرى إليها . ولذا ضعف النشاط التجارى فى البحر الأحمر،وهو الأمر الذى دفع تجار الفرنجة إلى أسواق لشبونه بدلا من

أسواق مصر والشام . واشتدت الأزمة الاقتصادية بسبب ذلك فى مصر عام ١٥١٤ م (٩٢٠ هـ)، وأدت إلى خراب الإسكندرية وجدة ودمياط، بسبب عدم وصول سفن من الموانى الشرقية. واستمر الحال على هذا النحو حوالى ستة أعوام ، وباتت الإسكندرية فى حالة خراب ، ومرجع ذلك أن عمال النائب فى الإسكندرية كانوا يمارسون أعمالهم دون الأخذ بالأمر الواقع ، فصاروا يطالبون التجار بدفع العشر عشرة أمثال ، فامتنع تجار الفرنجة والمغاربة من دخول الثغر . وامتنع التجار أيضاً من دخول ميناء جدة ، وآلت إلى الخراب، وعز وجود الشاشات من مصر ، واشتد الظلم، وانقطع ورود السلع التى كانت تأتى من أوربا .

* * *

وعندما وصلت إلى الحبشة أخبار الانتصار البرتغالى على الأسطول المملوكى، قامت الملكة هيلانة الوصية على ابنها الملك لبنادنقل (١٥٠٨ — ١٥٤٠ م) بمحاولة توطيد العلاقات مع الإمارات الإسلامية فى الحبشة ، لفتح طرق التجارة وهو الأمر الذى كان السبب الرئيسى فى المشاحنات بين هذه الإمارات والحبشة. وأرسلت الملكة هيلانة البعوث إلى البلدان التى يهمها الامر، ومنها مصر، غير أن هذه المساعى لم تكلل بالنجاح ، فاتجهت الملكة هيلانه نحو الغرب ، وأرسلت مبعوثها متى الارمنى (ماتيو) إلى نائب الملك البرتغالى الفونسو البوكرك الذى تقابل معه فى ميناء دبيل الهندية . وطلبت الملكة من ملك البرتغال أن يزوج بناته لأبنائها .

وسافر مبعوث الملكة من الهند إلى لشبونة ، رفقة نائب الملك المشار إليه ، وقابل رجال حكومة البرتغال ، وعاد فى عام ١٥٢٠ م ، ومعه سفير برتغالى اسمه دون رود ريجودى ليما . ومات المبعوث الحبشى بعد عودته من البرتغال ، دون يقابل الملكة هيلانة وبقى السفير البرتغالى فى الحبشة حوالى خمسة أعوام، لدراسة خطة تهدف نحو تحويل مجرى النيل ، والقيام بهجوم

على مصر والجزيرة العربيـة . غير أن هـذه الخطـة التى فكر البرتغـاليون فى تنفيـذها على أن يشـترك معهم ملوك فرنسا وإسبانيـا والبرتغـال ، كما أشرنا من قبـل ، لم يـكتب لهـا النجـاح، لأن البرتغـال بعد أن تغلبت مع الحبشة على قوات المسلمين فى منتصف القرن السادس عشر الميلادى ، طالبت الحبشة بالدخول فى الكاثوليكية ،أى أن تتبع البابا فى روما ، بدلا من تبعيتها للكنيسة المرقسية فى مصر. غير أن الشعب الحبشى قاوم هذه الفكرة، وذهب البرتغاليون من الحبشة .

* * *

واستطاع السلطان قنصوه الغورى بعد غرق الأسطول المملوكى أن ينزل وحدات بحرية جـــديدة بميناء السويس ، وأرسل الأسطول الجـديد تحت إمرة حسين الكردى النائب فى جدة، لمطاردة الأسطول البرتغالى الذى أسرع فى الانسحاب من البحر الاحمر إلى الساحل فى الهند وأبحر الأسطول المصرى إلى المياه الهندية ، غير أنه لم يستطع إنزال هزيمة بالأسطول البرتغالى وطلب قوة من مصر فجاءت إليه قوة بحرية بقيادة الريس سليمان العثمانى. ولم تتمكن القـوتان من إنزال هزيمة بالأسطول البرتغالى ، بسبب ما كان للبرتغالين من قواعد قوية على الشاطىء الهندى . لذا انسحب الأسطول المصرى إلى جده ، ونجح فقط فى إبعاد خطر دخول البرتغاليين إلى البحر الاحمر. وفى هذه الأثناء دخلت الدولة المملوكية فى مرحلتها النهائية، حيث كانت الأقدار أقوى من عزيمة السلطان الغورى الذى كان كبير الأمل فى الإنتصار على البرتغاليين، لو لم يتحرك العثمانيون ضده . وكان الغزو العثمانى لمصر مفاجأة أيضاً للفرنجة، ومخيبا لآمالهم بعد أن نجحوا فى حرمان الدولة المملوكية من مصدر ثرائها وقوتها ومناعتها .

والحق أن هذه نقطة جديرة بالوقوف عندها ، فالسلطان العثمانى كان يعلم بنشاط مصر فى محاربة النفوذ البرتغالى، وبما يبيته الأوربيون لمصر ، فبدلا من

مساندة السلطان العثمانى لمصر حتى تتغلب على أزمتها ، أنزل بها ضربة قاسمة أضاعت معها جهودها فى المحيط الهندى والبحر الاحمر ، ولم تستطع الدولة العثمانية من مواصلة نشاط مصر فى تلك المناطق إلا بعد حوالى عشرين عاماً ، استطاع البرتغاليون خلالها من تقوية مراكزهم . وجاء الأسطول العثمانى ، ولم يكن فى تصميمه ما يجعله قادراً على الملاحة فى المحيط الهندى لأنه بنى على تصميمات السفن للملاحة فى البحر المتوسط .

* * *

وحاول السلطان سليم العثمانى بعد دخوله مصر إرسال قوة بحرية إلى المحيط الهندى ، لحماية البحر الأحمر والخليج العربى من نشاط البرتغالين ، وأنشأ لهذا الغرض ترسانة فى السويس وعهد إلى كبير وزرائه ، ابراهيم باشا بتنظيمها وأرسل السلطات ، فى عام ١٥٢٥م قطعاً بحرية إلى اليمن لبسط النفوذ العثمانى عليها ، وبعد دخول العراق تحت سيطرة الحكم العثمانى نقلت الأخشاب لبناء أسطول كبير للقيام بإغارة بحرية على والمراكز البرتغالية فى المحيط الهندى . وتم بناء الأسطول العثمانى عام ١٥٤١م ، وكان بحارته من رعايا البندقية. واحتل العثمانيون ميناء عدن وبعد ذلك بسنوات قليلة قام قائد برتغالى اسمه استيفاو — دى — جاما بغزوة جريئة على ميناء السويس ، وذلك فى عام ١٥٤١ م واتصل البرتغاليون بالحبشة ، وقدموا لهم مساعدات عسكرية فى حربهم ضد الإمام أحمد قرين الذى قدمت له الدولة العثمانية قوة من رجالها ، غير أن هذه القوة انسحبت بعد الانتصار الذى أحرزته قوات الإمام ، وظهر البرتغاليون مع الحبش ، فكانت لهم الغلبة على جيش الإمام فى عام ١٥٤٨ م .

* * *

والمعروف أن البرتغاليين جاءوا إلى المحيط الهندى وقلوبهم مليئة حقداً على المسلمين ، وفى عزمهم اقتلاع النفوذ الإسلامى من المنطقة بأجمعها ، والتحالف مع الحكام المحليين على ذلك السعى . ومن ذلك أن الحملة البرتغالية الأولى عادت إلى البرتغال ، وحملت معها نماذج من السلع الآسيوية ، كما نقلت إلى الملك عمانويل

أن سكان المبار من المسيحيين على مذهب هرطقى . وعلى ضوء هذه المعلومات الخاصة بالعقائد أراد الملك أن يجتذب إليه ملك الهند الذى كان يعرف بالساموري، للعمل ضد المسلمين. وقامت الحملة البرتغالية الثانية — وكانت أكبر من الحملة الأولى — مكونة من ثلاثة عشر مركباً، وعليها ١٥٠٠ رجل. وأعطيت قيادتها إلى بدرو الفارس كابرال وكانت الأوامر التى صدرت إليه إقامة محطات تجارية، ووكالة أعمال فى قليقوط، وأن ينزل القسس فى هذه الأماكن لتعريف الأهالى بالمسيحية الصحيحة، كما يعلمها البرتغاليون . وكان على القائد البرتغالى أن يشحن بضاعته، وبعد ذلك يتحدث إلى الحاكم باتجاه البرتغاليين نحو معاملة المسلمين وذلك بالاعتداء على سفنهم فى البحار، وأن يطلب من الحاكم طرد العرب المسلمين من مدينته قليقوط بوصفه حاكماً مسيحياً .

وصل كابرال فى شهر سبتمبر سنة ١٥٠٠ إلى قليقوط، ومعه ستة مراكب فقط، وحاول إقامة محطة تجارية فى هذه المدينة غير أن المسلمين لم يلبثوا أن دبروا حالة شغب محلية قتل فيها ٤٨ برتغالياً . وخربت مستودعات المحطة التجارية البرتغالية الجديدة ثم أطلق البرتغال نيران مدافعهم على المدينة الموكولة إلى دالميدا وتركوها وساروا إلى كوشين الواقعة جنوب قليقوط ، على ساحل الملبار . ووجد كابرال أن حاكم قليقوط لا يدين بالمسيحية بل هو هندوسى، ففشلت بذلك الخطط التى وضعها ملك البرتغال ولم ينجح مبعوثه فى مهمته إلا قليلا ، بسبب معارضة العرب . وأرسل الملك عمانويل فى عام ١٥٠٢م فاسكو دى جاما إلى الهند للحصول على تعويض عن حوادث عام ١٥٠٠م التى قتل فيها ٤٨ برتغالياً ، وخربت فى أثنائها الممتلكات البرتغالية . وأرسلت أيضاً بعض قطع بحرية إلى مدخل البحر الأحمر للهجوم على سفن المسلمين. وعين ملك البرتغال فى هذه السنة دوق فرانسيسكو فى الشرق ، وزوده بتعليمات كثيرة ، منها إنشاء حصون فى كلوه وانجديقا وكانت كلوه مدينة إسلامية معادية للبرتغال . وكان الغرض من إقامة هذه الحصون تزويد السفن البحرية بالمياه العذبة الحصنين على أن يبدأ دوق دالميدا فى بناء حصنين آخرين أحدهما فى كوشين والثانى فى كنور وكانت المهمة الثالثة هى الذهاب إلى مدخل البحر الأحمر ، لبناء حصن فى موقع مناسب لمنع السفن التى تحمل التوابل من الدخول إلى مصر . وبذا يفقد الهنود أملهم فى المتاجرة مع غير البرتغاليين وبعد

الانتهاء من هذه المأموريات كان على دالميدا أن يذهب إلى ساحل الملبار لإقامة حصن فى كولام الهندية،وهى مركز تصدير الفلفل وتقع جنوب كوشين وكان على نائب الملك كذلك أن يراقب شحن الفلفل إلى البرتغال وأن يتخذ ما يراه من إجراءات ضد قليقوط،وأن يتعامل فى سلام مع راجا كوشين إذا وافق هو على طرد المسلمين . وكان على الميدا أيضاً أن يرسل سفناً برتغالية إلى هرمز فى الخليج الفارسى العربى وإلى ساحل الهند — ولا سيما دبول وكوجرات وشول ويتخذ من هذه البلاد قواعد للهجوم على السفن العربية . واشترط الملك البرتغالى فى تعلياته أنه فى حالة قبول الحكام المسلمين فى هذه المدن للبرتغاليين أن يدفعوا أتاوة وأن يسمحوا للسفن البرتغالية بدخول الموانى لشراء الحاجيات المطلوبة .

واستطاع دالميدا تنفيذ تعليمات بناء الحصون فى كلوه وميسه وانجديقا وكونور وكوسين ، وحاول الهجوم على السفن الإسلامية فى عام ١٥٠٦ م، غير أنه لم يوفق . ولم يتمكن نائب الملك من بناء الحصن المطلوب عند مدخل البحر الأحمر واستعاض عنه باحتلال جزيرة سقطره التى اختارها لتكون قاعدة للهجوم على السفن التجارية التى تحاول الدخول إلى البحر الأحمر،وتم ذلك فى عام ١٥٠٧ . غير أن رفض الفونسو دى البوكيرك قائد السفن البرتغالية رفض إطاعة أوامر نائب الملك وذهب إلى هرمز بدلا من الهند وحاول إقامة حصن هناك لكن مقاومة السكان وهرب بعض البرتغاليين جعلت مهمته عسيرة. وأرسل نائب الملك حملات برتغالية لبناء حصون فى سوفاله وموزنبيق .

وبدأت عمليات القرصنة على سفن المسلمين،واستمرت هذه الحركة التى قصد بها اقتلاع جذور النشاط العربى من منطقة المحيط الهندى،واحتكار التجارة فى أيدى حكومة البرتغال . ووجد البوكيرك أن هذه العمليات سوف تخلق جواً من عدم الثقة كما أنها لم تدخل إلا ربحاً قليلا إلى خزانة الدولة ، ووجد أيضاً أن غالبية الغنائم الغالية الثمن يختلسها الضباط والجنود. فكان عليه أن يغير من سياسة البرتغال التى ترمى إلى احتكار التجارة كلية وطرد العرب المسلمين . وقد أخذ بعين الاعتبار فى قراره هذا وجود قوات بحرية مصرية وقوات أخرى من سلطنة كوجرات ، ووجد البوكيرك أن الأمل ضعيف فى إرضاء العرب لذلك

رأى أنه من الضرورى أن يقيم حصوناً فى المراكز التجارية الرئيسية، وهى عدن . وهرمز . ديو . وجوا . وهذه كانت فى فكرته منذ زمن وأضاف إليها مصوع الواقعة جنوبى سواكن على ساحل البحر الأحمر وأراد البوكيرك أيضاً أن يجعل حكام هذه المراكز من البرتغاليين على أساس أن قيام منشآت برتغالية فى هذه المراكز وعليها حكام من بنى جنسه يخفف الضغط من جانب، الآسيويين ويطلق يدهم فى إدارة شئونهم التجارية وغيرها . وكان البوكيرك يخشى دخول الأسطول المصرى إلى بحر العرب لمقاومة الأسطول البرتغالى لأن دخول الأسطول المصرى إلى هذه المياه سيقوى أعداء البرتغال فى الهند وغيرها . ووجد البوكيرك أن بناء الحصون فى المراكز التى سبقت الإشارة إليها سوف يجعل مركز البرتغال فى الهند فى أمان وسوف يفتح الطريق إلى البحر الأحمر للهجوم على جده ، وأراد بذلك أن يحول الصراع على التجارة فى المحيط الهندى إلى حرب صليبية لأنهـــا فى رأيه ضرورة لازمة لحكومة البرتغال ولخدمة المسيحية ورأى البوكيرك أن الهندوس والمسيحيين المحليين لا يملكون سوى رأس مال قليل ، ولا يستطيع هو تدمير تجارة المسلمين فى سرعة لأن المسلمين لهم مال وفير وتخدم تجارتهم أعداد كبيرة من السفن . واستقر رأيه على أن التجارة مع الشرق يجب أن تكون مع المسلمين الذين كان اشتغالهم بالتجارة بعيد الجذور ، وليس من السهل على البرتغاليين اقتلاعهم . وأخذ يفكر فى الوسائل التى تساعد على نجاح مهمته، ومن هذه الوسائل الاستيلاء على جزء من تجارة المسلمين، وتحويل الجزء الباقى عن طريقه مع المراكز التى كانت معدة لإقامة الحصون إلى مراكز تجارية ، التجارة إلى البحر الأحمر . نهائيا إلا بعد الحصول على إذن خاص .

واحتل دالبوكيرك مدينة جوا التى أراد أن يجعل منها مركزاً تجارياً للبرتغال فى آسيا، واحتل بعد ذلك الملقا . ثم انسحبت القوات البرتغالية من جزيرة سقطره، لأن دالبوكيرك وجدها ليست بذات فائدة ما، وحاول احتلال عدن، ولكنه فشل .

ودخلت القطع البرتغالية إلى البحر الأحمر، وهو الأمر الذى ترك انطباعاته القوية فى مصر المملوكية والدولة العثمانية. وحاول دالبوكيرك إنشاء حصن فى ميناء ديو عن طريق المفاوضة، غير أنه لم ينجح. وعمل فى نفس الوقت على إنهاء حالة الحرب

مع قاليقوط التى تولى حكمها ساموري جديد ، بعد مقتل سلفه عن طريق السم بايعاز دالبوكيرك . وأعطى الساموري الجديد للبرتغال إذناً ببناء حصن فى قاليقوط ، كما منحهم حق الاتجار فى الفلفل . وسافر دالبوكيرك بعد ذلك إلى هرمز ، لتقوية النفوذ البرتغالى ، وقرر أن تمتد رحلته إلى البحر الأحمر فى عام ١٥١٦ م غير أن ظروف إبعاده عن مركزه وموته حالت دون ذلك .

وفى عهد دالبوكيرك وصل نفوذ البرتغال من الخليج الفارسى العربى إلى الملايو ، واستطاع البرتغاليون أن يكون لهم سلطان ونفوذ سياسى على ساحل الهند الغربى بالقرب من مدن الملقا وهرمز ، كما أنهم استطاعوا بناء الحصون فى المراكز الاستراتيجية وصار بذلك لأسطولهم نفوذ قوى على التجارة ، غير أن دالبوكيرك أغفل أن يجعل النشاط البرتغالى قائماً على كفاية ذاتية من حيث المال والرجال .

ويبدو أن دالبوكيرك بالغ فى تقديره لثروة أرخبيل بلاد الملايو ، لأن سياسته هذه شجعت عدداً من مواطنيه على السفر إلى تلك البلاد . وأعطى دالبوكيرك للتجار أهمية كبرى فى الشئون البرتغالية ، وهو الأمر الذى جعل البرتغاليون لا يفكرون كثيراً فى منازلة المسلمين . وقرر دالبوكيرك أن بناء الحصون التى اقترحها دالميدا سيكلف مالاً كثيراً ، وأنه لا ضرورة لها ، ويقول فى رسالة بعث بها إلى الملك « إن العدد الكبير من الحصون التى نقيمها سيكون له أثره فى إضعاف القوة المحاربة ، واجعل كل الاعتماد على الأسطول ، لأننا إذا لم نكن أقوياء فى البحر فإن كل شيء سوف يكون علينا .

ويبدو أن الأمر الذى دفع دالميدا إلى التفكير فى بناء الحصون هو خوفه من احتمال حدوث كارثة إذا اصيب الأسطول بخسارة . وكان دالميدا يأمل فى المنفعة التى تنجم عن بناء هذه الحصون ، وكان فى حالات تفكيره فى سياسة بلده يريد أن يجعل من هذه الحصون ما يناسب حاجة بضعة آلاف من الرجال وعدد قليل من قطع الأسطول . وبعد وفاة دالبوكيرك بذل خلفاؤه الجهد الكبير لتثبيت ما كسبه هو فى النواحى السياسية والاقتصادية ، وهذا بالرغم من أن أخطاءه كانت عديدة .

وقرر ملك البرتغال احتكار عدد من السلع التجارية ،وجاء فى قانون الهند البرتغالية لعام ١٥٢٠م بيان هذه السلع ، وهى الفلفل والزنجبيل والقرفة والدارصيني والقرنفل وجوز الطيب والحرير .

ولم يسمح هذا القانون للمسيحيين والمسلمين أو الهندوس بالتجارة فى هذه الأصناف ، دون الحصول على تصريح ملكى ، كما حرم على عدد كبير من موظفى الدولة ممارسة التجارة لحسابهم الخاص . غير أن هذا القانون لم يكن معمولاً به فى كثير من الأحوال ، إذ قام البرتغاليون والآسيويون بخرقه ، ولم يكن من المعقول منع المستوطنين من البرتغال من التجارة ، لأن عدداً كبيراً منهم كان يصرف لهم جزء من رواتبهم عينية ، واستمر ذلك حتى السنوات الأخيرة لحكم الملك عمانويل الأول. وبعد وقف صرف جزء من المرتب من السلع على هذا النحو . لم يكن فى إمكانيات التاج البرتغالى منع ضباطه من التجارة ،لأن المرتبات كانت قليلة وغير كافية. ودخل الفساد فى إيرادات الدولة وهو الأمر الذى جعلها غير قادرة على دفع مرتبات الموظفين، أى أن المرتبات الضعيفة خلقت الفساد، وجعلته يستشرى، وسهلت للموظفين ممارسة التجارة التى انتشرت بين الموظفين فى منتصف القرن السادس عشر الميلادى .

وأظهر الآسيويون طاعتهم للقانون ،عندما لم يكن هنالك اختيار، كما أنهم فى بعض الحالات تجاهلوا القانون ،أو قدموا الرشاوى للسماح لهم بالتجارة. ولم يكن من السهل على حكومة البرتغال إحكام احتكارها بدقة، وفى منتصف القرن السادس عشر الميلادى أهمل التجار من الآسيويين هذه القوانين ، وأخذوا فى نقل التوابل ومنها الفلفل إلى البحر الأحمر . ثم إن مشروع دالبوكيرك الذى طلب من الأسيويين الحصول على تصريح لسفنهم لم يلق اهتماماً ، ولم يكن فى مقدور القوات البرتغالية المتغيرة أن تباشر رقابتها على التجارة البحرية . وكان هنالك إحكام للرقابة على بعض موانىء ساحل الهند الغربى ومنطقة هرمز ، ومع ذلك كان التهريب سهلاً .

وتولى شئون تجارة ملك البرتغال إدارة اسمها بيت الهند فى لشبونه ، وكان عمل هذا البيت مراقبة شئون الإدارة البرتغالية عامة فى الشرق . وكانت السفن تذهب فى كل عام من لشبونه إلى ساحل الملبار لنقل التوابل للملك ، وكانت السفن تؤجر لهذه السفريات. ومنعت القوانين هذه السفن من قبول الغنائم أو مخالفة أوامر قبطان كل سفينة .

الشاطر بصيلى عبد الجليل

بعض مصادر هذا البحث

ابن أياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور . (طبعة القـاهرة ، وجمعية المستشرقين الألمان) ، خمسة أجزاء .

Axelson, (Eric) : Portuguese in South - East Africa 1600-1700. (Johannesburg 1960).

Coupland, (Sir Reginald) : East Africa and its Invaders. (Oxford, 1938).

Gray, (Sir John): Early Portuguese Missionaries in East Africa. (L ndon, 1958).

Ibid. History of Zanzibar. (Oxford).

Oliver & Mathew : History of East Africa, Vol I, 1963.

Serjeant, (R.B) : The Portuguese of the South Arabian Coast, (Oxford, 1963).

Stigand, (C.H) : The Land of Zinj. (London, 1913).

Strandes, (Justus) : The Portuguese Period in East Africa. (Nairobi. 1961).

Vambery, (A), The Travels aud Adventures of the Turkish Admiral Sidi Ali Reis, (London, 1899).